تأبين

المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

الدكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

أود فى هذه الكلمات القليلة ، بمناسبة تأبين الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، أن أتحفف من دين فى أعناق تلامذته ، فى مصر والبلاد العربية ، الذين عرفوا قدره ، وقدروا فضله ، ونهلوا من علمه الغزير ؛ حيث كان عطاؤه لهم عطاء بغير حدود ، فضلا عن أنه كان لهم قدوة فى الحياة ، يتحلى بأغلى الصفات ، من تواضع جم ، هو تواضع العلماء .

فقد كان — رحمه الله — من كبار رواد علم التاريخ الإسلامى ، المتطور إلى المنهج العلمى الحديث ، شد الانتباه إلى موضوع مبتكر فيه ، لم يسبقه إليه أحد فى الشرق ؛ جعله محوراً لدراساته وأعماله ؛ هو موضوع الثغور الإسلامية ، وهى مواقع الحصون على الحدود ؛ بحيث حببه إلى كثير من الباحثين فى الشرق ، وكأنه نوع من المغازى ، الذى كان هو الآخر ؛ قد لقى قبولا من مؤرخى الإسلام الأوائل ؛ بما كان يتناوله من أمجاد العرب .

ولعل باكورة أعماله فى هذا الميدان ؛ رسالته الأولى للدكتوراه التى تقدم بها لجامعة السوربون فى باريس بعنوان[1] :

" La Lutte entre Arabes et Byzantins "

---

(١) غير مترجمة ، طبعت فى الإسكندرية ١٩٤٧ .

أى الصراع بين العرب والبيزنطيين ، بين فيها أن نجاح العرب فى اقتطاع جزء كبير من أمبراطورية البيزنطيين أو الروم ، يعود فى المقام الأول إلى وحدة الأمة العربية ، التى وضع بذورها نبى الإسلام ، واستكملت على يد أبى بكر ، مما أدى إلى خروج العرب كفاتحين ؛ بحيث سرعان ما أصبح لقب خليفة ، يفوق لقب أمبراطور ؛ مع أن العرب طوال تاريخهم السابق ؛ قد عرفوا بالفردية والتطاحن والعصبية .

ومع ذلك ؛ فهو لا يرى أن سبب نجاح الفتوحات العربية ؛ يرجع بالأولى إلى مبدأ المباهلة ، ذلك المبدأ الذى ذكر فى القرآن ؛ ليعنى تأييد الله للمسلمين فى فتوحاتهم ؛ فهو لا يريد أن يسخر دعوة الدين فى الغزو والفتح ؛ وإن كان الصحابة قد استغلوا هذا الشعور الدينى ؛ بما ورد فى القرآن والحديث النبوى ؛ فهى محاولة جريئة منه ؛ لتفسير حركة الفتوحات العربية .

وعلى كل حال ؛ بعد أن أقام المسلمون حدودهم مع الروم فى البر والبحر ؛ اتخذوا سياسة حدود ثابتة ؛ فلجأوا إلى الدفاع عنها ؛ عن طريق الحصون ، والحملات السنوية ، شتاء وصيفاً وربيعاً ؛ بحيث انتظمت على أيديهم ؛ بشكل لم يعرف من قبل ، لأى أمة من الأمم .

وقد جر إهتمامه بموضوع الثغور الإسلامية ؛ أن يكتب سلسلة من الأبحاث عنها ؛ منها البحث الطويل : الممالك الحليفة ، أو ممالك ماوراء النهر ، والدولة الإسلامية إلى أيام المعتصم[1] ؛ يتعرض فيه لحدود الإسلام الشمالية الملاصقة للترك ؛ وهو موضوع لم يتناوله باحث عربى قبله ، بسبب صعوبته ؛ التى تظهر من تعدد تقسيماته، مثل: طخارستان، صغانيان ، شومان،طالقان،الختل، كش ، نخشب ، بخارى ، سمرقند ، الصغد ، خوارزم ، فرغانه ، الشاش ؛ حيث

---

(١) مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، المجلد الرابع ، الإسكندرية ١٩٤٨ .

ركز فيه على سياسة تكوين الأحلاف ، التى يعتبرها الجانب السلمى ، الذى فاق الجانب الحربى فى سياستهم ؛ فكانت مرونة السياسة العربية ، وقله خطئها ، أن جعلها تتحاشى فى أكثر أمرها العنف الجارح للعزة القومية ، فى هذه النواحى ؛ مما كان سبباً فى انتشار الإسلام ذاتياً ؛ بحيث أن الترك الذين أقبلوا على الإسلام ؛ سرعان ما جاهدوا مع المسلمين ضد بنى جلدتهم من الكفار ؛ وأصبحوا بعد قرن واحد يؤلفون نواة الجيش المركزى ، الذى تعتمد عليه الخلافة ؛ ومع ذلك ، فإن العرب كانوا يؤيدون هذه الأحلاف ؛ بالغزو السنوى ، استبقاء لطاعة الأحلاف ، واستظهاراً للقوة أمام من وراء الأحلاف من الأعداء .

ومنها أيضاً ، بحث بالفرنسية بعنوان[1] : Le Statut des pays de 'Ahd aux VII e et VIII e siècles. ، أى حالة بلاد العهد فى القرنين السابع والثامن ؛ كان ألقاه فى مؤتمر المستشرقين الحادى والعشرين عام ١٩٤٨ ؛ حيث نشر ملخص له فى كتيب المؤتمر Actes ؛ تناول فيه نظاماً سلمياً ثغريا آخر ؛ كان يعبر عنه بالاصطلاح « أهل العهد » ، وهو الذى يجعل أهل البلاد المجاورين للثغور الإسلامية « مصالحين » ؛ فهذا التنظيم الذى تحدث عنه أبو يوسف والماوردى بايجاز شديد ، ولم يكن يعنى شيئاً لدى كثير من المؤرخين الأوائل ، أبرزه برؤية جديدة ؛ حينما أراد أن يطبقه على أقاليم ثغرية متعددة ، مثل النوبة وقبرس وأرمينية ، وحتى على بلاد ما وراء النهر .

ولقد جعلته خبرته بالثغور الإسلامية وأقاليمها ؛ أن يضيف إلى أبحاثه السابقة ؛ بحثاً قيماً آخر ، بعنوان : تقسيمات إقليمية فى العصر العباسى الأول ، وظهور الشرق الأدنى فى الإسلام[2] ؛ تعرض فيه لناحية لم يتنبه لها المؤرخون الأوائل وحتى الحديثون ، الذين كانوا يقسمون الإسلام من ناحية السياسية

---

(١) غير مترجم ، نشر فى القاهرة ، ١٩٥١ .

(٢) بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، المجلد الثانى ، ١٩٤٤ .

إلى شرقى وغربى ، ويجعلون إيران والعراق والشام ومصر وما حول هذه البلاد مشرقاً ، وإفريقية والأندلس وما حولها مغرباً ؛ ولكنه أراد أن يضيف تقسيماً ثالثاً ، بتقسيم المشرق الإسلامى إلى قسمين : — شرقى وغربى ؛ مما قد يكون سبباً فى ميلاد اصطلاح الشرق الأدنى ، الذى يجرى على ألسنتنا حالياً ؛ وذلك بالرجوع إلى أصوله الأولى ، التى سجلتها كتب التاريخ القديمة ؛ فهذا التجزؤ ظهر مع قيام الدولة العباسية تقريباً ، باطلاق كلمة المغاربة على سكان البلاد التى تقع غربى إقليم العاصمة العراقية ، لتعنى مصر وما حولها ؛ وذلك بقصد أن يناقض نظرة لامانس «Lammans» الضيقة ، التى لاتبين مكانة مصر ؛ حيث كانت لفظة المغاربة تعنيها ، وتتردد كثيراً على ألسنة الساسة .

وإلحاقاً بفكرة التقسيمات السابقة ؛ فإنه عمد إلى بحث قضية تاريخية هامة ، هى وحدة مصر والشام ، ظهرت فى التاريخ الإسلامى منذ السنين الأولى لقيام العباسيين ، واستمرت قائمة قريباً من ثمانية قرون ، إلى أن غلب الترك العثمانيون على الخلافة ؛ فخصص لها كتاباً بعنوان : « شامصر ، المغرب فى عصور الإسلام » ؛ لم يطبع إلا فى ملازم ، وهى تسمية مبتكرة من قبله ؛ ليؤكد بها هذه الوحدة ؛ يجمع بين اسمى مصر والشام ؛ مما يدل على علمية كبيرة وعاطفة قوية ؛ مأخوذة من أن شامصر ، هى المغرب ، مثلما ترددت فى الكتب الإسلامية القديمة ، وكأنها نداء تاريخى .

كذلك اهتم بالثغور الغربية للإسلام ؛ واختص منها دولة المرابطين[1] ، التى هى تسمية على اسم الرباط ، أو الأماكن المحصنة التى تكون على الساحل أو الحدود ، لمراقبة العدو وجهاده ؛ وهو عبارة عن تصوير لحياة هذه الدولة السياسية ، باعتبارها دولة دانت بمبدأين خاصين هما : مبدأ الوحدة ، ومبدأ الجهاد ؛ فحققت أهدافها فى المغرب والأندلس ، واستحقت بذلك ، تحمس

---

(١) الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٩ . انظر أيضاً : شعيرة ، الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية ، المؤتمر التاريخى ، كلية الآداب بنغازى ١٩٦٨ .

المشرق لها ؛ مقسماً تاريخهـــا إلى ثلاثة مراحل : الصحراوية ، والمغربية ، والأندلسية . حقاً إن المؤرخ النابغ الأستاذ عبد الله عنان ؛ قد تعرض لهذا الموضوع من قبل ؛ إلا أن الباحث قـــد اعتمد على أوثق المصادر ؛ سيما ابن خلدون ؛ مما جعله ينهج منهجاً مختلفاً .

ومع علمـــه الغزير بموضوع الثغور ، الذى ظهر واضحاً من أبحاثه السابقة وتآليفه ، وتعاطفه الفنى معه ؛ فإنه لجأ أيضا إلى ترجمة بعض ماكتبه عنه المستشرقون ؛ سيما فازيلييف « Vasiliev » ، فترجم كتابه : العرب والروم ، من الفرنسية إلى العربية ؛ فنقل به بعض فكر المستشرقين عن موضوع الثغور[1] .

* * *

هذه الكتب والبحوث وغيرها ؛ قامت ولاشك على أسس علمية منهجية ، فضلا عن أنه أول باحث عربى ، لايقتصر فى بحثه على المصادر القلمية التقليدية ، عربية وإسلامية ، وإنما اعتمد أيضا على مصادر ليست من تأليف العرب أو المسلمين ؛ ولكن من تأليف مؤرخين بيزنطيين أعداء العرب ، أو حتى مسيحيين من الرهبان وغيرهم .

كذلك هو من أوائل المؤرخين العرب ، الذين تنبهوا إلى قيمة البرديات ، كمصدر لعلم التاريخ ، ومنبع مباشر يتصل به المؤرخ ؛ بحيث نعتبره أول عالم مصرى انتفع بها على نطاق واسع فى أبحاثه ؛ فلعل ذلك كان نابعا من إحساسه المصرى الدال على الأصاله ؛ بحكم أن الورق البردى أول ما صنع فى مصر ، وهو الذى عرف للعرب باسم القرطاس ، التى وردت فى القرآن الكريم ؛ مما

---

(١) كذلك له ترجمة لسلسلة محاضرات عامة فى أدب الأندلس وتاريخها ، ألقاها عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، الأستاذ ليفى بروفنسال «Lèvi—Provençal»، وراجعها عبد الحميد العبادى ، القاهرة ١٩٥١ .

اكسبها قدسية خاصة ؛ مثل تسمية مصر . وبسبب أن بعض البرديات قد كتبت باليونانية ؛ فإنه لم يتردد فى دراسة اللغة اليونانية ، ومتابعة محاضرات مدرسة الدراسات العليـــا فى باريس : Ecole des Hautes Etudes ؛ للتعود على قراءتها .

وقد ظهرت له عدة أبحاث عنها ، منها رسالته الثانية ، التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من السوربون بعنوان :

La Documemtation papyrologique de l'Epoque arabe Catalogue des papyrus grecs, publiés d'époque arabe, concernant l'Egypte.

أى الوثائق البردية من العصر العربى ، قائمة بالبرديات اليونانية المنشورة من العصر العربى ؛ خاصة بمصر[1] ؛ فكان الذى دعاه إلى جمع البرديات اليونانية بالذات ، بسبب أن استعمال اليونانية لم يستمر بعد قيام الفتح العربى ؛ ولأنها اشتملت على نظم كثيرة ، من بيع وزواج وضرائب وظلامات وطلب عمال من مصر لبناء المساجد فى دمشق أو القدس ، وطلب بحارة ؛ بحيث جمع منها قائمة بأسماء ٦٥٨ بردية . وفى سبيل جمعها بذل جهداً كبيراً ، واضطر إلى أن يرجع إلى ما نشره عنها علماء البرديات ، فى الدوريات والفهارس ، مثـــل :

Bilabel, Crum, Bell, Becker Zeretelli, Schmidt, Turner, Grenfell, Frisk, Grohman, Zilliacus, Wilcken, Wessely وغيرهم .

ولعل اهتمامه بالبرديات جعـــله يكتب بحثاً بالفرنسية ، بعنوان [2] :

Le Pagarque au le siècle P H; d'après les papyrus d'Aphrodito.

يتناول فيه وظيفة الباجارك البيزنطية ؛ وهو موظف كبير فى الأقاليم ، له أنشطة متعددة ، لم يعد يوجد بلفظه الحرفى فى العصر العربى ، وإن وجد بمضمونه

---

(١) غير مترجمة ، وطبعت فى الإسكندرية ١٩٤٨ .

(٢) نشر القاهرة

تحت لفظة « صاحب » ؛ فى هذه المقالة القيمة ، يقوم بدراسة مقارنة مستغلا البرديات اليونانية والقبطية والعربية ؛ ليبين حقيقة وظيفته فى الباجوس Pagus، التى أصبحت تقابل الكورة العربية .

وبسبب تقديره لأهميـــة الوثيقة عموما كمصدر فى التاريخ ، شارك مع الدكتور/ كامل حسين،فى تحقيق مخطوط هام بعنوان[1] : سيرة الأستاذ جوذر ، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين ، تصنيف أبى على منصور العزيزى الجوذرى ، التى تتناول عرضا للحياة الرسمية ، فى حياة الدولة الفاطمية ، لمدة أربعين عاماً ، عن طريق عرض سيرة جوذر ، الرجل الهام فيها بعد الأئمة .

ولقد وضح لى بحق من تلك القراءة الحالية لمؤلفاته وأبحاثه القيمة ، فى مناسبة تأبينه ، بعد مرور هذه الأعوام الطويلة على نشرها ، قيمة هذا المؤرخ المجيد ، فى فهم التاريخ الإسلامى ، وعينه الخبيرة التى تنفذ إلى أعماق الأعماق ، لكى يصل إلى الحقيقة ؛ فالتاريخ مهما قيل فيه يصنعه المؤرخون ؛ ذلك الأمر الذى لا يخطئه الفهم الصحيح .

ومما يذكر عن الأستاذ الدكتور / شعيرة ، أنه لما وقعت نكسة ١٩٦٧ ، وكان معاراً وقتئذ لجامعة الجزائر ، فإنه أصيب بالشلل ؛ حيث يذكر تلامذته هناك ، أنه وهو طريح الفراش ، كان يهتف بالفرنسية : A Bas le Sionisme فلتسقط الصهيونية ؛ وذلك بسبب إختراق اليهود حدود مصر ؛ وقلقه على بلده الحبيب .

هذا هو الأستاذ الدكتور /محمد عبد الهادى شعيرة ، العالم،المحقق ، المدقق ، المبتكر ، البصير ، المتواضع ، الودود ، تغمده الله برحمتـــه ، وألهم ذويه وتلامذته الصبر والسلوان ، ونفعنا جميعاً بعلمه وفضله .

---

(١) طبعة القاهرة .